أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٤٩ —

لقد هبطت عن عرشك لتقف بإزاء باب كوخى

كنت جالساً وحدى فى زاوية أترنم بألحان ألقيت أنت إليها سمعك فهبطت عن عرشك لتقف بإزاء باب كوخى

وفى فنائك احتشد العظماء والأغانى تتردد هناك فى كل حين ؛ غير أن لحناً بسيطاً ارتفع بين هذه الأغانى فجذبك إليه ؛ هو لحن قصير فيه الشجن اختلط بموسيقى العالم العظمى فهبطت ومعك هدية من زهر ... هبطت لتقف بإزاء باب كوخى

— ٥٠ —

وانطلقت أتكفف الناس وأتنقل من باب إلى باب على طريق القرية . ثم بدت عربتك الذهبية عند الأفق كأنها الحلم اللذيذ فعجبت : ترى من يكون ملك الملوك هذا !

ولمع الأمل فى نفسى وخُيِّل إلىّ أن أيام السوء قد انقضت فوقفت أنتظر الهبات ، وهى تعطى فى غير سؤال ، والمال وهو ينثر هنا وهناك

ووقفت العربة بإزائى . وحين وقع بصرك على دلفت نحوى وعلى شفتيك ابتسامة ، فاستشعرت السعادة فى نفسى ؛ وعلى حين فجأة مددت إلىّ يمناك وأنت تقول : « ماذا عندك لتهبه لى ؟ »

آه ! إنها دعابة ظريفة أن تمد يدك تسأل شحاذاً . واضطربتُ وسيطرت علىّ الحيرة ثم تناولت من سلتى أصغر حبة قمح ... تناولتها فى بطء وقدمتها إليك

لشد ما عجبتُ حين أفرغت سلتى عند الغروب ، فألفيت بين متاعى الحقير حبة من ذهب فى قدر حبة القمح ، فرحت أبكى فى حُرقة وأسى لأننى لم أجد فى نفسى القوة على أن أقدم إليك كل ما أملك

— ٥١ —

أظلم الليل وانتهى عملنا اليوم ، وخيل إلينا أن آخر ضيف قد قدم لأن أبواب القرية غلقت ؛ غير أن قائلاً قال : « سيأتى الملك »

فسخرنا منه وقلنا : « لا ، لا يمكن ! »

وبدا لنا كأن طارقاً يدق الباب . فقلنا إنه الريح ؛ ثم أطفأنا المصابيح وانطلقنا إلى الفراش ؛ غير أن قائلاً قال : « إنه رسول ! » فضحكنا منه وقلنا : « لا ، بل هى الريح ! »

وفى أعماق الليل دوى صوت خيل إلينا — والنعاس يغالبنا — أنه هزيم الرعد ؛ ثم زلزلت الأرض زلزالها ، واضطربت الحيطان ففزعنا عن مراقدنا ، وقال قائل : « إنه صوت عربات » فقلنا فى صوت الحالم : « لا ، إنه جلجلة السحب ! »

وفى جوف الليل رنّ فى مسامعنا دوى الطبل ، ونادى مناد : « هيوا ، لا تنوا ! » فوضعنا أيدينا على قلوبنا والخوف ينفضنا نفضاً شديداً ، وقال قائل : « ويلى ، هاهى ذى راية الملك تخفق ! » فاندفعنا نصيح : « لقد أزف الوقت فلا تتكاسلوا ! »

لقد جاء الملك ، ولكن أين المشاعل ؟ أين الأكاليل ؟ أين العرش ليستوى عليه ؟ يا للفضيحة ، يا للعار ! أين الدار ؟ أين الزينة ؟ فقال قائل : « عبثاً تصيحون ، حيوه بأيد فارغة وادعوه إلى حجراتكم المعطلة ... »

افتحوا الأبواب ، واعزفوا الألحان ! ففى جوف الليل جاء الملك إلى بيتنا الموحش المظلم . إن الرعد يزجر فى السماء ، وإن البرق يزيح أستار الظلام . هات فراشك البالى وافرشه فى الفناء ؛ فهو قد جاء على حين بغتة مع العاصفة الهوجاء ... هو رب الليل الحالك المهيب ...

— ٥٢ —

لقد أردت أن أطلب إليك عقد الورد الذى تحلى به جيدك غير أنى لم أجسر ، فانتظرت حتى تبرح عند الصباح . وحين غادرت وجدت بقايا منثورة على الفراش ، وفى السحر رحت أبتش عن الوريقات المفقودة كأنى شحاذ

آه ، ماذا وجدت ؟ ماذا تركت ذكرى هواك ؟ إنك لم تترك الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر بل سيفك العظيم يتألق كشعلة من لهب ، وهو ثقيل كالصاعقة . لقد اخترق نافذتى أول شعاع فتىّ من أشعة الصباح فهمّ الطير يسقسق ويسأل : « أيتها الفتاة ، ماذا أصبت ؟ » لا ، لم يكن الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر ، بل هو سيفك المهيب

وجلست أفكر فى دهشة : ماذا عسى أن تكون هذه الهدية ؟ لم أجد له نحباً ، وإنى لأخجل أن أتقلده وأنا حطام متهدم ، وإنه ليؤذينى إن ضممته إلى صدرى ، ولكنى سأحمل فى قلبى هذا

الشرف ... هذا العبء الثقيل من الآلام ... هذه الهدية الغالية

والآن لم يبق فى هذه الدنيا ما أخافه لأنك أنت نصيرى . لقد نزعت عن رفيق الموت ، فسأفديه أنا بروحى . إن سيفك معى لأحطم به قيودى فلا يبقى فى هذه الدنيا ما أخافه

سأنزع عن نفسى — منذ الآن — زخرف الحياة ؛ ولن أتوارى بعد — يا مليك القلب — فى ركن أبكى ، ولن أستحيى أو أرقق من خلقى فأنت قد حببتنى سيفك لأزين به فلن أتحلى بسواه من زينة الحياة

ما أجمل سوارك وقد زينته النجوم ، ورصعته كواكب الحلية ؛ غير أن سيفك أحلى منه فى عينى وهو يلمع كأنه جناح طير ڤيشنو [1] المقدس ، وقد انتشر فى أشعة الغروب الحمراء

إنه يضطر كأنه آخر أحاديث الحياة حين يشيطر الألم على الإنسان فى ساعة الاحتضار فيذهله عن نفسه ؛ ثم هو يتألق كأنه شعاع الوجود الطاهر حين يرسل شرارة حامية فتلتهم كل العواطف الأرضية

ما أجمل سوارك وقد زينته كواكب الحلية ! غير أن سيفك — يا إله الرعد — قد رصع بجمال باهر يفوت الوصف ويفوق الخيال

— ٥٣ —

لن أطلب إليك شيئاً ؛ ولن أذكر اسمى عند مسمعيك . وحين تنأى عنى سأقف فى صمت . لقد كنت لدى البئر وحدى والظل وارف ، والفتيات ينطلقن إلى دورهن ، يحملن جرارهن المترعة ؛ لقد ناديتنى : « تعال معنا ، إنه يضنيك أن تنتظر من لدن الصباح حتى الظهر » غير أنى ترددت حيناً ثم ذهلت عن نفسى وسط الخواطر المضطربة

ما سمعت نبيك حين جئت ، وكان فى نظراتك الأسى حين وقع بصرك علىّ ، وكان فى صوتك أثر الأين والتعب حين قلت : « آه ، إننى مسافر ظمآن » ففزعت عن أحلامى لأصب الماء فى كفيك ، فخفت الأوراق من فوقنا ، وانبعث شدو الطير يمزق سكون الظلام ، وفاح أريج عطر الزهرات من منعطف الطريق

ووقفت صامتاً فى خجل حين سألتنى عن اسمى ، ماذا أسديت إليك فتسأل عن اسمى لتذكرنى ؟ ولكن ذكرى الماء الذى أطفأت به حرقتك ستعلق بقلبى وتبعث فيه الرضى . إن ساعات الصباح قد انطوت ، والطير يغرد فى كلال ، والأوراق تحف من فوق ، وأنا جالس إلى نفسى أفكر وأفكر

— ٥٤ —

مايزال الفتور يسيطر على قلبك ، والنعاس يستولى على عينيك أفلم يبلغك أن الزهرة تحكم بين الشوك فى كبرياء ؟ استيقظ ؛ أوه ، انتبه ! لاتدع الزمان يمر عبثاً

عند نهاية الطريق الصخرى وفى بلاد الوحدة الطاهرة ... هناك يجلس صاحبى فى عزلة ، فلا تخدعه . استيقظ ؛ أوه ، انتبه !

ماذا لو أن السماء تلهبت واضطربت فى قيظ الظهيرة المحرق ... ماذا لو أن الرمال المتأججة نشرت لظى الظمأ ...

أفلا تجد الطرب فى قرار قلبك ؟ أفلا تتفجر قيثار الطريق — فى كل خطوة من خطواتك — عن لحن شجى فيه الألم ؟

— ٥٥ —

إن رغبتك تامة فىّ ، وإنه أنت الذى هبطت إلىّ ؛ فمن عسى أن يكون حبيبك — يا إله الملك — إن لم أكنه ؟

لقد اتخذتنى لك شريكا أقاسمك هذا الثراء العريض ؛ ففى قلبى السرور اللانهائى أستمده منك ، وفى حياتى مشيئتك تسيطر علىّ

لهذا زينت نفسك — وأنت ملك الملوك — بالجمال الخلاب لتأسر قلبى ، ولهذا بذلت حبك فى سبيل من تحب ، فظهرت للأعين كائنين امتزجا معاً

— ٥٦ —

أيها النور ، أيها النور الذى تشرق على العالم ، وتقبل العيون وتنفث البهجة فى القلوب !

آه ، إن النور يرقص — يا عزيزى — فى أعماق حياتى ، إنه يضطرب بين أوتار قلبى ؛ إن السماء تنفرج ، والريح تهب عاصفة ، ورنات الضحك تتردد على الأرض

إن الفراش ينشر أجنحته على لجة النور ، والزنبق والياسمين يضطرب فوق موجها

لقد تحطم النور فوق كل سحابة — يا عزيزى — إلى قطع من لجين استحالت إلى جواهر تتألق

إن البهجة تتناثر — يا حبيبى — على أوراق الشجر فيعم السرور ، وإن نهر السماء يفيض على شاطئيه فيملأ الطرب كل مكان

فاضل محمود مهيب

(١) ڤيشنو : أحد آلهة الثالوث الهندى